دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان: تغيير وجه المدينة المقدسة : الرسائل السياسية في الطوبوغرافيا المعمارية للقدس

المصدر: مجلة الدراسات الفلسطينية

الناشر: مؤسسة الدراسات الفلسطينية

المؤلف الرئيسي: الخالدى، رشيد إسماعيل

المجلد/العدد: ع 53

محكمة: نعم

التاريخ الميلادي: 2003

الشهر: شتاء

الصفحات: 89 - 104

رقم MD: 273071

نوع المحتوى: بحوث ومقالات

قواعد المعلومات: EcoLink

مواضيع: المبانى الأثرية ، القدس ، الطبوغرافيا المعمارية ، التراث المعمارى ، الأماكن المقدسة ، العمارة الإسلامية

رابط: http://search.mandumah.com/Record/273071

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

تغيير وجه المدينة المقدسة:
الرسائل السياسية في
الطوبوغرافيا المعمارية للقدس*

رشيد إسماعيل الخالدي**

أولاً:

لم تزل القدس رمزاً للقداسة والسلطة السياسية على مدى أكثر من أربعة آلاف عام. وعلى امتداد هذا الردح من الزمن، دأب الذين سادوا المدينة المقدسة على تشكيل وجهها المعماري وإعادة تشكيله مراراً لتوجيه رسائل ذات دلالة على القوة الإلهية، وعلى قوتهم هم أيضاً. وقد كان المقصود من كل من هذه التغيرات في وجه المدينة، أو في ما أسميه طوبوغرافيتها المعمارية،(١) أن تؤدي عدة غايات، متزامنة أحياناً. من ذلك أن هذا المبنى، أو ذاك، ربما كان أنشئ بصورة رائعة لإيواء الحجاج أو الجنود؛ أو لتمجيد الله؛ أو لسكنى ملك، أو محارب صليبي، أو مستوطن. لكن في الوقت نفسه، كان القصد من وراء هذه الصروح أن توجه، بمفردها ومجتمعة، رسائل دينية وسياسية صريحة. كان القصد منها أن "تُقرأ" في الوقت نفسه كمبان قائمة بذواتها، وكجزء من مجموعة متناسقة.

كثيرون ممن أتيحت لهم الفرصة لزيارة القدس في الأعوام الماضية باتوا يألفون بعض معاني المباني التي تكسو اليوم معظم وجه المدينة. فعلى التلال المحيطة بالمدينة، وفي دوائر متراكزة بعضها قريب من المدينة القديمة وبعضها بعيد، تسير سلسلة من المباني شبه العسكرية في مظهرها. وهي منتظمة في مرآها، مرصوصة الصفوف، وتشتم منها رائحة عدوانية ودفاعية. وهذه المباني، سواء أكانت تلك المشيدة لإيواء ما يقارب الـ ٢٠٠,٠٠٠ إسرائيلي الذين تم توطينهم في القسم الشرقي من القدس منذ سنة ١٩٦٧، أم كانت من

(*) المصدر: *Jerusalem Quarterly File*, no. 3, Winter 1999, pp. 21-29; Ibid., no. 4, Spring 1999, pp. 21-29.
وكانت هذه المقالة قُدمت أصلاً في الندوة الدولية الخامسة التي عُقدت في جامعة بير زيت، في الفترة ١٢ ـ ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٨، تحت عنوان Landscape Perspectives on Palestine.

(**) أستاذ تاريخ، ومدير مركز الدراسات الدولية في جامعة شيكاغو، ورئيس الجمعية الأميركية من أجل القدس.

(١) أنا أفضل هذه العبارة لأنها تدل على ما هو منصوب على الأرض لإعادة تشكيل وجهها أكثر مما تدل عبارة "توبوسكيب" (toposcape) التي اقترحها زميلي أرجون أباديوري. أنظر:
Arjun Appadurai, *Modernity at Large: Cultural Dimensions of Globalization* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1996), pp. 33 ff.

المباني الرسمية أو شبه الحكومية، إنما شيدت لتؤدي هذه الغايات العادية وللإدلاء ببيان سياسي. إن صرامتها وبساطتها في مقابل المشهد القائم، وخلافاً لبقية الطوبوغرافيا المعمارية للمدينة، إنما تعربان عن الطبيعة السياسية البحتة لوجودها: فالغاية المتوخاة منها هي أن تشغل حيزاً، وتغطي مكاناً، وتعلن ادعاء بملكية في الأرض، بكل بساطة وصراحة. ونحن نستطيع أن نقرأها ونفهم ما تعنيه وما المراد منها أن تقوم به، تماماً مثلما تعلمنا أن نقرأ سواها من المشاهد وأنواع النصوص المعمارية الأخرى.

وبصفتي مؤرخاً أنفق ردحاً من الزمن في النظر إلى القدس والتفكير فيها مع الافتقار إلى التدريب أو التجربة في تاريخ الفن أو سواه من الثقافة المرئية، فإني أتوخى القيام بثلاثة أمور متواضعة في هذه الورقة التمهيدية: تقديم شيء من الإطار التاريخي لعملية البناء بالحجر القائمة حالياً في الطوبوغرافيا المعمارية للقدس عبر استخدام المباني لإيصال رسالة معينة؛ طرح بعض التأملات في التباين بين الواجهة التقليدية، الإسلامية بالدرجة الأولى، للمدينة وبين تلك التي عملت إسرائيل على فرضها خلال الأعوام القليلة الماضية؛ التشديد على بعض المضامين السياسية لهذه الصفوف من الحرس الحجري المسنن بالنسبة إلى المشروع الاستعماري الإسرائيلي في القدس.

ثانياً:

زيّن بعض أشهر البناة في التاريخ، ومنهم هيرودس الكبير، والإمبراطور الروماني قسطنطين، والخليفة الأموي عبد الملك، والسلطان العثماني سليمان القانوني، القدس بصروح كبرى. وقد شيدت هذه الصروح لأغراض الحكم، أو العبادة، أو الشفاء، وكذلك من أجل إيصال رسائل متعددة. كما ترك عدد من الحركات، والسلالات الحاكمة، والإمبراطوريات ذوات السطوة - كالصليبيين، والمماليك، والإمبراطورية البريطانية، والحركة الصهيونية - بصماته على وجه المدينة. ولا تزال الآثار الباقية في الطوبوغرافيا المعمارية للمدينة مما أوحوا به من "نصوص"، تلك الآثار المخطوطة في معظم الأحيان بالحجر المقدسي الذهبي الشاحب، تقرأ اليوم في أفق المدينة، وفي شوارعها، أو تحت بعض شرائحها الأثرية الكثيرة.

نحن نعلم أشياء، قليلة جداً أحياناً، عما كان عليه منظر المدينة في عصور متقادمة. وقد أتاح لنا علم الآثار وفرة من الدلائل الناقصة، وهي في سوادها الأعظم على هيئة خليط من الحطام الحجري وشظايا الأواني الفخارية. أمّا المخطوطات القديمة وسواها من المصادر الوثائقية فتركت لنا المزيد من القطع، واللمحات السريعة، والروايات المتناقضة. وقد قام علماء الآثار والمؤرخون وسواهم ببلورة هذه المعطيات كلها في صورة للطوبوغرافيا المعمارية للقدس ومظاهرها المادية في مختلف العصور والحقب. وجاء بعض هذه الصيغ، الصادرة عن مرام وطنية أو دينية معلنة أو مضمرة، مغرقاً في الخيال، ومشارفاً المحال. ومن الأمثلة لهذه الأخيرة مجسم ضخم يزعم تمثيل هيكل هيرودس، ويظهر كل ساعة أمام أعين السياح الأجانب المبهورين، من تحت مجسمين للمسجد الأقصى وقبة الصخرة - هذين الصرحين الضخمين اللذين لم يزالا يزينان الحرم الشريف منذ ألف وثلاثمئة عام مضت. ويجري هذا العرض في قاعة فسيحة (الأرجح أنها من أصل أموي أو مملوكي، مع أن هذا لا

يذكر أبداً للسياح) في النفق الذي فتحته السلطات الإسرائيلية على بعد بضعة أمتار فقط من موقع الحائط الغربي (حائط المبكى) من الحرم الشريف.

ونجد في بعض الأحيان الأخرى أن هذه اللمحات مما كان عليه وجه القدس في الماضي رصينة ومعقولة، مع أننا لا نملك أية طريقة للتأكد من أن تلك الرؤى الرصينة مطابقة فعلاً لما كان عليه واقع المدينة. فما المحك الذي نملكه، في نهاية المطاف، لامتحان دقة نص قديم كالعهد القديم الذي لا يمكن استخدامه مصدراً تاريخياً إلاّ ببالغ الحذر؟[٢] كيف يمكننا أن نقوّم روايات شهود العيان من قرون مضت من أمثال يوسيفوس، أو المطران أركولفوس، أو ناصر خسرو، أو مجير الدين؟ ولئن كان هؤلاء يشكلون نماذج من مصادرنا الوثائقية، فكيف ترانا نثق بالمصادر الأركيولوجية، عندما نعلم أن مجرد نسبة يسيرة من سطح القدس قد خضعت لحفريات علمية، وأن نزراً أيسر من نتائج هذه الحفريات قد تم نشره حتى الآن؟ من ذلك، مثلاً، أن المعطيات الأساسية المتعلقة بالحفريات الأثرية الإسرائيلية جنوبي الحرم الشريف، والتي ربما كانت الأوسع نطاقاً في تاريخ القدس، ما زالت غير منشورة. ونحن ما زلنا نفتقر تحديداً إلى تحليل علمي للمباني الحجرية الستة أو أكثر التي ترقى إلى أوائل العصر الأموي، والتي كشف عنها هناك مازار وبن دوف منذ نحو عشرين عاماً، والتي لا يزال الكثير من معالمها مرئياً اليوم في "الحديقة الأثرية" الواقعة جنوبي الحرم الشريف تماماً.[٣]

مع ذلك، فنحن نستطيع أن نجد في أعمال أوليغ غرابار، ومايكل هاملتون بورغوين، ومئير بن دوف، وداني باهات،[٤] وبعض الآخرين، صوراً لما كانت تبدو عليه القدس في أوقات متعددة من ماضيها. أفضل هذه الأعمال، وعلى الأخص ما كتبه غرابار وبورغوين، يحاول أن يظهر بالصورة ويبرهن ويفسر ما قصد مختلف الحكام والأنظمة أن يظهروه في

---

(٢) إن تنقيح العهد القديم العبري في الصورة التي وصلت إلينا حدث بعد قرون من عصر داود وسليمان، ذلك العصر الذي يشكل العهد القديم مصدراً من مصادر معرفتنا القليلة. وللاطلاع على نظرة موجزة إلى النظريات المتباينة بشأن متى وُضع مختلف أجزاء العهد القديم، أنظر:

Karen Armstrong, *Jerusalem: One City, Three Faiths* (New York: Alfred A. Knopf, 1996), pp. 24-25.

(٣) توجد صور لهذه المباني ورواية اكتشافها في:

Meir Ben Dov, *In the Shadow of the Temple: The Discovery of Ancient Jerusalem* (Jerusalem: Keter, 1982), pp. 272-321.

(٤) غرابار (Grabar) هو مؤلف عدة أعمال مهمة عن القدس، ومن أحدثها ما كتبه مع سعيد نسيبه (Said Nuseibeh):

The Dome of the Rock (New York: Rizzoli, 1996) and *The Shape of the Holy: Early Islamic Jerusalem* (Princeton: Princeton University Press, 1996).

أمّا بورغوين (Burgoyne)، فقد وضع كتاباً ضخماً تحت عنوان:

Mamluk Jerusalem: An Architectural Study (London: British School of Archaeology in Jerusalem, 1987).

كما تجدر الإشارة إلى الكتب التالية الموضوعة لجمهور القراء، ولذا فهي أقل أكاديمية وإن كانت لا تقل قيمة عما سبق:

Ben Dov, op. cit.; Danny Bahat, *The Illustrated Atlas of Jerusalem* (New York: Simon and Schuster, 1990); S. Auld and R. Hillenbrand, eds., *Ottoman Jerusalem* (London: Altajir World of Islam Trust, 2000), parts I, II.

القدس عبر التفاعل بين الطوبوغرافيا المعمارية للمدينة التي كان في مستطاعهم أن يتحكموا فيها إلى حد بعيد، وبين الطوبوغرافيا المادية للمدينة التي لم يكن في مستطاعهم أن يتحكموا فيها، أو أن يتحكموا فيها إلى حد معلوم. ونحن نجد في خرائط عملهم، وتصاويرهم، وصورهم الفوتوغرافية للمباني التي ما زالت قائمة والآثار الباقية، علاوة على النماذج الكومبيوترية المبدعة في كتاب غرابار *The Shape of the Holy*، ما يمكننا من محاولة تصور مشهد الطوبوغرافيا المعمارية الذي كانت القدس تعرضه للناظر في مختلف العصور. ومعظم المناقشات في هذا القسم يستند إلى معرفة هؤلاء المؤلفين الأربعة.

والظاهر من مجمل هذا العمل أن أعظم حكام القدس وأقوى الأنظمة نفوذاً قد حاولوا أن يتحكموا في بعض عناصر الطوبوغرافيا المادية للقدس بواسطة مشاريعهم الإنشائية، وكانوا ينجذبون بصورة خاصة إلى النقاط المرتفعة من هذه المدينة الكثيرة التلال. فمن الواضح مثلاً أن هيرودس، كغيره من البناة من قبله في أرجح الظن، قد عمل على الرغم من القيود التي تفرضها عليه طوبوغرافية جبل موريا، على تمهيد هذا الجبل وبسطه لإيجاد المنصة الفسيحة المسطحة التي تشكل قاعدة الحرم الشريف كما نراه اليوم. وفي وسعنا أن نرى ضخامة هذه المهمة التي نهض بها هيرودس إذا ما تفحصنا ما تبقى من حيطان الدعم الهائلة، التي لا يزال جزء منها يشكل اليوم الحائط الغربي، وأجزاء أُخرى من أسوار الحرم الشريف. فقد قام هيرودس بأكثر من مجرد تحديد موقع للعبادة على قمة جبل، إذ سبقه إلى ذلك داود وسليمان وسواهما قبله، بحسب رواية العهد القديم، وإنما ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فتوج الجبل بسوره المسطح المستطيل الضخم وشيد عليه هيكلاً كبيراً أشبه بصندوق.

وبالمثل، ففي القرن الرابع للميلاد بنيت كنيسة القبر المقدس (التي أُطلق عليها اسم مارتيريوم يومها، وتسمى اليوم كنيسة القيامة) على قمة الموقع الذي اعتقد الإمبراطور قسطنطين أنه جبل الجلجلة، مستلهماً الاكتشافات التي قامت بها والدته الإمبراطورة هيلانة في أثناء حجها إلى القدس. وقد أشرف هذا البناء وتجديداته على المدينة من الجهة الغربية لعدة قرون، كما يتبين بوضوح تام من النماذج الكومبيوترية التي وضعها غرابار. وهنا أيضاً نجد صرحاً محاطاً بسور يحتل قمة إحدى التلال، ويسيطر منها على المشهد المحيط. ولا يمكننا إلاّ تخمين ما كان يبدو عليه مارتيريوم قسطنطين والأبنية اللاحقة التي أصبحت كنيسة القيامة (وإنْ كان ويلكنسون وغرابار وسواهما قد أعطونا مؤشرات معقولة[٥])، لكن على نحو ما كان الطرف الغربي المدور من المجمّع والقبة التي تعلوه شاهدين على قمة الجبل الذي غطياه.

بعد بضعة قرون، أي في سنة ٦٩٢، قام عبد الملك وابنه الوليد، وهما اثنان من كبار البناة في تاريخ الإسلام، بمتابعة ما كان هيرودس تركه من إعادة تشكيل الطوبوغرافيا المادية للمدينة. فقد أعادا بناء المنصة الكبيرة التي أقامها لسور الهيكل ووسعاها، وشيّدا

(٥) لرؤية رسم تخطيطي لكنيسة قسطنطين، أنظر:
John Wilkinson, "Jerusalem under Rome and Byzantium, 63 BC-637 AD," in K.J. Asali, ed., *Jerusalem in History*, rev. ed. (London: KPI, 1997), p. 94.
ولرؤية نموذج كومبيوتري للمبنى، أنظر:
Grabar, *The Shape of the Holy...*, op. cit., p. 33.

فوقها قبة الصخرة ومسجد الأقصى الموسع والأروع بهاء: مسجداً أكبر كثيراً من البنية الرائعة جداً التي نراها اليوم. وإلى الجنوب منه شيّدا سلسلة من المباني الكبيرة المتعددة الطبقات، التي ظل وجودها مجهولاً حتى إجراء الحفريات الحديثة والتي تظل وجهة استعمالها محل تخمين،(٦) والتي أضافت الكثير إلى كتلة الجبل الذي بنيت على سفحه. وإلى الغرب مباشرة من هذه المنصة الفسيحة التي عرفت منذئذ بالحرم الشريف، بدأ عملية ملء الطرف الشمالي من وادي Tyropean الذي اختفى تماماً في نهاية المطاف؛ ذلك الوادي الذي كان ينبسط في العصور القديمة بين التلال الشرقية والغربية للمدينة. وقد أُنجزت هذه العملية في القرون اللاحقة على أيدي خلفائهم، كبار البناة المماليك.

وقد كان لكل من هذه التغيرات الثلاثة الكبرى في الطوبوغرافيا المعمارية للقدس معناه الديني العميق المرتبط بالمشروع الديني المركزي لكل من هذه الديانات الإبراهيمية الثلاث. غير أنه كان لها أيضاً مضامين سياسية تجرنا إلى الموضوع الرئيسي لهذه الورقة. من ذلك أن هيرودس شيّد هيكله في الموقع الذي يعتقد أن سليمان كان بناه فيه من قبل،(٧) لا للاستفادة من قداسة الموقع القديم في ذلك الوقت والتشديد عليها فحسب، بل أيضاً للتشديد على نفوذه وعظمة حكمه. ومن الجدير بالملاحظة أنه في حين كان هيكل هيرودس منظراً مهيباً في الأرجح، هذا إذا كان لحيطان الدعم المبنية لأسواره التي يمكن أن نشاهدها فوق الأرض وتحتها اليوم أن تعطينا فكرة عنه، فلا بد أنه لم يكن الصرح الوحيد الذي شيّده هيرودس في القدس. فقد بنى أيضاً قلعة ضخمة (قلعة "أنطونيا") شمالي الهيكل، وقصراً في الجانب الغربي من المدينة توّجه بثلاثة أبراج كبيرة. وكانت هذه، بحسب رواية يوسيفوس، وهو من أهم مصادرنا بالنسبة إلى ما كانت تبدو عليه القدس في تلك الحقبة، أروع من الهيكل نفسه، من بعض النواحي.(٨) نحن نعلم أن الرومان أعجبوا كثيراً

---

(٦) ذهب بن دوف إلى أنها كانت ثلاثة قصور للخليفة وأفراد عائلته وولاة القدس، ويشير إلى المنفذ المباشر الذي يصل أكبر هذه المباني بالمسجد الأقصى:

In the Shadow..., op. cit., pp. 293-320.

أمّا غرابار فهو أكثر حذراً، إذ يلمح إلى غايات أُخرى لهذه المباني الضخمة (أكبرها كان يقوم على قطعة أرض طولها ٩٦ متراً وعرضها ٨٤ متراً):

The Shape of the Holy..., op. cit., pp. 128-130.

لاحظ نقده لاستنتاجات بن دوف في الحاشيتين ٣٣ و٣٤، ص ٢١١.

(٧) أقول "يعتقد" لأنه لا يوجد أي دليل علمي على الموضع الذي كان يقوم فيه هيكل سليمان، أو حتى على أنه وُجد أصلاً بصورة يقينية، على الرغم من أن المؤمنين جميعاً، في أية من الديانات الإبراهيمية الثلاث، ملزمون بالتسليم بأنه كان موجوداً. ويعتقد معظم العلماء الجادين أنه كان موجوداً، وإن بصورة مختلفة ربما عن تلك الموصوفة في العهد القديم، الذي نقل إلى الشكل الذي نجده عليه اليوم بعد عدة قرون من تدوينه. وللمزيد من المعلومات، أنظر:

Israel Finkelstein and Neal Silberman, *The Bible Unearthed* (New York: Free Press, 2001).

(٨) يمكن أن يصح الشيء نفسه بالنسبة إلى قصر سليمان:

Armstrong, op. cit., p. 48.

لاحظ أن بناء القصر، استناداً إلى العهد القديم، "استغرق ضعف المدة التي استغرقها بناء الهيكل؛ ولهذا دلالته."

ويروي يوسيفوس أن مباني قصر هيرودس كانت "كبيرة ورائقة" إلى حد أنها كانت تجعل "حتى محراب [الهيكل] يبدو تافهاً":

Josephus, *The Jewish War* (Harmondsworth: Penguin, 1978), p. 75.

بتحصينات القصر: لذلك فإن تيطس الذي دمر الهيكل ومباني كثيرة غيره في القدس، احتفظ ببعض هذه الأبراج الكبيرة وأعاد استخدامها. ولعل بقايا واحد منها تشكل أساس الحصن الذي نراه اليوم، والذي يرقى معظمه إلى عصر الصليبيين والأيوبيين والمماليك. وكان القصد من كل هذا البنيان في القدس (وفي مواضع أُخرى من فلسطين) أن يشهد بطريقة تجتاز العصور على قوة واحد من أعظم حكام العالم الروماني في عصره، وحتى القليل الذي بقي من هذه المباني لا يزال يفعل ذلك اليوم.

وبالمثل، فإن القصد من كنيسة القيامة كان التشديد على قداسة الموقع الذي صلب فيه المسيح، وعلى الهيمنة السياسية التي تمتعت بها قوة مسيحية عظمى على مدينة آلام المسيح وصلبه في مدينة كانت العاصمة الروحية والسياسية لليهود. والتباين الحاد الذي كان قائماً بين بهاء كنيسة القيامة واليباب القاحل في موقع الهيكل السابق، كانت الغاية منه التشديد على أن القدس باتت اليوم مدينة أتباع المسيح لا اليهود الذين أُبقي موقعهم المقدس خراباً عن عمد، والذين حُظِّر عليهم دخول المدينة. وعلى امتداد القرون الثلاثة من أيام قسطنطين إلى الفتح الإسلامي، كانت الطوبوغرافيا المعمارية للمدينة تسودها صروح مسيحية في أربعة من أعلى مواضع فيها، هي: كنيسة القيامة؛ كنيسة نيا الكبرى التي شيّدها الإمبراطور جوستنيان، والتي كانت تنهض عند الطرف الجنوبي لما يعرف اليوم بحارة اليهود حتى قوضها زلزال عنيف؛ كنيسة رقاد السيدة على جبل صهيون؛ كنيسة الصعود على جبل الزيتون.

ما زال في وسعنا اليوم أن نشاهد كنيسة القيامة، وإن على وجه مختلف تماماً عما كانت عليه يوم أُنجزت سنة ٣٣٥، إضافة إلى كنيسة رقاد السيدة، وكنيسة الصعود، التي باتت اليوم معدلة كثيراً ومحاطة بمبان لاحقة. وعلى الرغم من أن كنيسة نيا اندثرت ولم تكد تخلف وراءها أثراً، فما زال في إمكاننا أن نتخيل المضامين السياسية المستهدفة من إقامة هذه الصروح المسيحية الكبرى التي تحتل عدة مواضع عالية في مدينة كانت في ذلك الوقت من التاريخ تتسم بقداسة مزدوجة فقط، للمسيحيين واليهود. ومن الجدير بالملاحظة أن هذه المباني الأربعة كلها كانت تسود الأماكن الأكثر قداسة عند اليهود في القدس أو تشرف عليها، ولا سيما جبل الهيكل، والمقابر والصروح القديمة على سفوح جبل الزيتون ووادي كيدرون.

أبعد من الإعلان الانتصاري لغلبة الدين الجديد، فلا بد أن الغاية من الأثر البصري الذي يخلفه مشهد هذه المباني، في مقابل خراب الهيكل وحرمه، إنما كانت التشديد على تفوق المسيحية على اليهودية. هذه الرسالة البصرية القوية ـ أماكننا العالية تتألق بالضياء،[٩] بينما أماكنكم مظلمة خربة ـ كان الغرض منها تكملة القيود الرومانية ـ البيزنطية القاسية على إقامة اليهود بالقدس، وعلى الصلاة في جبل الهيكل أو قريباً منه. وبينما كانت الشعائر المسيحية في القدس ذات طبيعة احتفالية في أكثر الأحيان، فإن شعائر اليهود في القرون التي تلت هدم هيكل هيرودس كانت تتسم بالنواح على الأمجاد الغابرة.

---

(٩) يذكر غرابار، في كتابه *The Shape of the Holy...*, op. cit., p. 37، مصدراً من القرن السابع يشير إلى الأنوار الساطعة التي كانت تشع في الليل من نوافذ كنيسة الصعود وتنير المدينة عبر وادي يهوشعفاط.

أمّا حكام القدس الجدد المسلمون فقد اختاروا وسيلة مختلفة لتحقيق الأهداف نفسها في توكيد غلبتهم السياسية والتشديد على تفوق عقيدتهم الدينية على عقائد الذين جاؤوا قبلهم. فهم لم يهدموا المواقع المقدسة لدى خصومهم المسيحيين المغلوبين، أو يستولوا عليها ـ خلافاً للوضع في دمشق، حيث اشتركت الديانتان في البداية في الصلاة في كنيسة القديس يوحنا إلى أن استولى عليها الخليفة الوليد، باني الأقصى، وهدمها وشيّد المسجد الأموي في موضعها.(١٠) ولا حاولوا في البداية أن يبنوا أبنية تنافس أبنية المسيحيين في المواضع العالية في القدس وحولها، مع أنهم بنوا مساجد على مقربة من بعض هذه المواقع المسيحية. بدلاً من ذلك، ومنذ فترة مبكرة جداً بعد استيلائهم على المدينة، وربما عقب ذلك مباشرة، بدأ المسلمون الأوائل تكريم موقع مختلف تماماً: منصة هيكل هيرودس المهجورة منذ زمن طويل. أمّا الروايات عن كيف ومتى حدث ذلك فمتضاربة،(١١) لكن يبدو أنه بعد وقت قصير من وقوع المدينة في قبضة المسلمين سنة ٦٣٧، أو في أوائل سنة ٦٣٨، قام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بزيارة المدينة، وتعرف على موقع الهيكل السابق المقفر، وعيّنه مكاناً لعبادة المسلمين. وبعيد ذلك أقيم مسجد بسيط عند الطرف الجنوبي لمنصة هيرودس. وقد صار يعرف بالأقصى إشارة إلى إسراء النبي من مكة إلى المسجد الأقصى المذكور في الآية الأولى من سورة الإسراء.

عمل نفر غير قليل من خلفاء عمر على تعزيز صلة المسلمين بهذا الموقع، ومن جملتهم أول الخلفاء الأمويين، معاوية.(١٢) فقد اختار معاوية، وهو من أدهى ساسة عصره، القدس لاستقبال زعماء أمة المسلمين الذين بايعوه بالخلافة سنة ٦٦١، والأرجح أن تكون المبايعة تمت في الحرم الشريف، مكرساً، على حد قول غرابار، "سابقة مماهاة القدس بإضفاء الشرعية على السلطة، وذلك فوق كل ما كانت المدينة تتمتع به من معاني التقوى والإيمان."(١٣) وقد انخرط معظم الخلفاء الأوائل فيما يبدو أنه عملية مستمرة من البناء

---

(١٠) من الجائز أن المسلمين شاركوا المسيحيين في موضع للصلاة في كنيسة القيامة قبل أن ينجز بناء المسجد الذي شاهده المطران أركولف سنة ٦٧٠. لكن يبدو من الواضح أنهم، في الفترة الأولى بعد الفتح الإسلامي، لم يستولوا على الكنيسة من أجل العبادة الإسلامية، لا هنا ولا في دمشق. عن تضمينات هذه المسألة، أنظر:

Fred M. Donner, "From Believers to Muslims: Confessional Self-Identity in the Early Islamic Community," in L. Conrad, ed., *The Byzantine and Early Islamic Near East, 4: Patterns of Communal Identity* (Princeton: Darwin, 1998), p. 42.

(١١) تتضارب المصادر فيما يتعلق بتاريخ الفتح، وهل استسلمت المدينة لعمر أم لنائبه المحلي أبو عبيدة، وفيما يتعلق بتفصيلات زيارة عمر، وشروط الاستسلام. وقد نشأت أدبيات هائلة عن الموضوع، لكن هذا في جميع الأحوال ثانوي بالنسبة إلى أغراضنا في هذه الورقة. أنظر:

Grabar, *The Shape of the Holy...*, op. cit., pp. 45 ff.

وانظر أيضاً:

Abdul Aziz Duri, "Jerusalem in the Early Islamic Period, 7th-11th Centuries AD," in Asali, op. cit., pp. 105-108.

(١٢) قبل زمن معاوية، الذي كانت القدس بوضوح عظيمة الأهمية في نظره، رُوي أن عثمان بن عفان، خلف عمر بن الخطاب المباشر، جعل عين سلوان التي تقع تحت الحرم وقفاً. أنظر:

Duri, op. cit., p. 108.

(١٣) Grabar, *The Shape of the Holy...*, op. cit., p. 50.

وإعادة البناء. لكن هذا الموقع لم يتخذ الوجه الذي له اليوم إلاّ بفضل جهود عبد الملك والوليد في أواخر القرن السابع. وكانت النتيجة أعظم مباني العمارة الإسلامية أثراً في النفس، قبة الصخرة، وولادة محور بصري وديني وسياسي للمدينة ككل.

إن ما فعله المسلمون في العقود الستة الأولى من حكمهم القدس كان الاستيلاء على المدينة سياسياً ودينياً من خلال تغيير طوبوغرافيتها المعمارية. ومن المهم أن ندرك أنهم كانوا يفعلون ذلك في إطار مدينة كانت أكثرية سكانها مسيحية وظلت كذلك فترة طويلة. وهم بعد أن أعادوا بناء المنصة الهيرودية الهائلة ومداخلها وبعض أدراجها وجددوها، تمموا هذه المجموعة ببناء لا مراء في روعته هو قبة الصخرة، وسلسلة أُخرى من المباني الفخمة إلى الجنوب منه. وقد ضمت هذه مسجداً أقصى أعظم قبة من هذا الذي نراه اليوم، أو الذي وصفه المطران أركولف سنة ٦٧٠، وستة أبنية كبيرة أو أكثر، متقاربة وملاصقة للحيطان الجنوبية والجنوبية الغربية للحرم الشريف.

وقد قام البناة المهرة الذين نفذوا أوامر عبد الملك والوليد فعلياً بتتويج جبل موريا تماماً كما فعل أسلافهم في عهد هيرودس، لكنهم أضفوا عليه مظهراً مختلفاً لإيصال رسالة مختلفة. وإذ استتموا الهيكل المثمن الشكل للبناء بقبة هائلة، وذلك كله على منصة مرتفعة عن أرض الحرم، فكأنهم قد أنشأوا مراقي متدرجة صعوداً إلى الله، شيئاً كجبل من صنع الإنسان على قمة جبل موريا، الموقع المقدس أصلاً. كانت القبة الذهبية تعكس أشعة الشمس الساطعة على نحو يتيح رؤيتها من أرجاء المدينة كافة، ومن مسافة بعيدة خارجها. وإذا ما نظر المرء إلى المجموعة تخصيصاً من جبل الزيتون إلى الشرق أو من الجنوب، وجدها تنطق بلسان جهود الإنسان لتمجيد الله، والسلطة السياسية، وذائقة التصميم الذي لا عيب فيه، وثروة الذين أمروا بإنشاء هذه المباني البهية. وإذا ما نُظر إليها من هناك، ومن غير تلك المواقع، فهي لا تزال تثير العجب في روع الناظر.

أبعد من المسلمين أنفسهم، وسواهم ممن قد يرغبون في الانضمام إلى المجتمع الإسلامي الجديد، فإن الجمهور الذي وجهت هذه الرسالة إليه أساساً هو جمهور المسيحيين. ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح من النقوش الأصلية، ومعظمها قرآنية الأصل، التي لا تزال مرئية بوضوح وسط الفسيفساء المزهرة الجميلة داخل قبة الصخرة. وقد تم تحليل النقوش الممتدة على أكثر من ٢٤٠ متراً تحليلاً دقيقاً من قبل نفر من الباحثين، أحدثهم غرابار، الذي بيّن أن المقصود منها كان إيصال رسالة توحيدية قوية معارضة للتثليث، موجهة في معظمها إلى الذين انتزع منهم المسلمون المدينة والذين كانوا لا يزالون خصومهم السياسيين والدينيين الأساسيين.[١٤] ومن المثير للاهتمام أن ثمة دلائل على أن يهود ذلك الزمن، الذين سمح لهم الفاتحون المسلمون بالعودة إلى القدس التي طردهم منها تيطس قبل ٦٠٠ عام، لم ينظروا بعين السخط إلى إجلال المسلمين لأقدس موقع عندهم.[١٥] فقد رحب اليهود بالمسلمين، تماماً كما رحبوا قبل بضعة عقود من الزمن بانتصارات الفرس الموقتة على

---

(١٤) النص مترجم ومحلل في: Ibid., pp. 56-71.

(١٥) عن أوائل ردات الفعل اليهودية على قدوم الإسلام إلى القدس، أنظر:

Moshe Gil, "The Jewish Community," in J. Prawer and H. Ben Shamai, eds., *The History of Jerusalem: The Early Muslim Period, 638-1099* (New York: New York University Press, 1996), pp. 165-171.

مضطهديهم الرومان والبيزنطيين والمسيحيين. وفي غضون عدة أعوام، سُجلت ذكرى انتصار المسلمين بالحجَر على موقع تركه البيزنطيون قاحلاً علامة على تفوقهم على اليهود. والآن شكلت هذه المباني الفاخرة الأخاذة في الموقع نفسه توكيداً مجلجلاً على غلبة الإسلام، وعلى قوة السلالة الأموية الحاكمة واستقرارها.

ثالثاً:

في مشهد القدس العام تقفز اليوم عدة تباينات إلى العين. ولعل أبرزها وأشدها أثراً هو ذاك القائم بين السماء الزرقاء عادة والحجر المحلي الفاتح اللون الذي لم تزل القدس تبنى به، والذي لم يزل يعكس أشعة الشمس الساطعة، ويضيء المساحات المقدسة كالحرم الشريف.[١٦] وهذا التباين بين الحجر والسماء سمة من سمات المدينة لم تزل ظاهرة منذ عدة قرون: نحن نعلم أنه كان قائماً حتماً منذ بداية الحقبة الإسلامية، وأنه كان ولا شك قائماً أيضاً قبل ذلك. وقد تنبه إليه نفر من كبار بنائي المدينة وعززوه بصورة مرئية من خلال استخدامهم الرائع للأزرق والذهبي ـ لوني السماء والشمس ـ في قبة الصخرة، وربما في أبنية أقدم عهداً.[١٧]

لكنْ ثمة تباين آخر يبدو مباشرة لعين الناظر اليوم. إنه التباين المزعج بين الأبنية القديمة في المدينة، ولا سيما النسيج الإسلامي التقليدي للطوبوغرافيا المعمارية للبلدة القديمة، المحاطة بأسوار فاخرة بناها في القرن السادس عشر سليمان القانوني، أعظم سلاطين العثمانيين، وبين المباني الأحدث عهداً، وهي إسرائيلية في معظمها، التي تزحف بخطى شبه عسكرية على قمم التلال في الأفق. ثمة نوع من التناغم بين المكان وبين المباني المملوكية والعثمانية الحجرية المتآكلة بفعل العوامل الجوية، والتي تشكل معظم ما هو مرئي من البلدة القديمة، إضافة إلى الأبنية الأموية والعباسية والفاطمية والصليبية والأيوبية، الأقدم عهداً. والشيء نفسه يصح، وإن إلى حد أضيق، بالنسبة إلى معظم الطوبوغرافيا المعمارية خارج أسوار البلدة القديمة، والتي ترقى إلى أواخر العصر العثماني وعهد الانتداب.

بين الفيلات الجميلة، والأبنية الحكومية والتجارية، والمباني السكنية خارج الأسوار في الأحياء العربية كالشيخ جراح وراس العمود وسلوان، وفي الأحياء العربية سابقاً كالطالبية والبقعة والقطمون، وفي الكثير من الأحياء اليهودية القديمة إلى الغرب والشمال الغربي من البلدة القديمة، ثمة يقيناً عدد من القطع المعمارية التافهة، غير المميزة وغير

---

(١٦) ثمة قانون بريطاني صدر في أوائل الانتداب وظل معمولاً به من قبل جميع الأنظمة منذئذ، وهو يقضي بأن الحجر وحده أو على الأقل التلبيس بالحجر يجب استعماله في أبنية القدس، بحيث يحمي المدينة من بعض التركيبات البشعة التي جعلها الأسمنت وسواه من المواد ممكنة في العصر الحديث. أنظر: مذكرات رونالد ستورز، حاكم القدس العسكري، *Orientations* (London: Weidenfeld and Nicholson, 1945) المسؤول عن هذا القانون، ص ٣١٠. كتب ستورز (ص ٤٤٠) أن "هناك عدة مراكز أعلى سلطة وشهرة داخل الإمبراطورية البريطانية وخارجها، لكن على نحو لا أستطيع تفسيره، فإن لا مكانة ترقى إلى مكانة القدس."

(١٧) يشير يوسيفوس في روايته لتقويض هيكل هيرودس إلى استعمال كميات كبيرة من الذهب، والفضة، والنحاس في أنحاء الهيكل:

The Jewish War, op. cit., pp. 343 ff.

المثيرة للإعجاب.[١٨] غير أن هذه المباني، بارتفاعها المتواضع إجمالاً (قلة منها تزيد على طبقتين أو ثلاث)، وباستعمالها الحجر الخشن أو المنحوت بطرق تقليدية، وبتجاوبها مع الأرض المحيطة، تبدو كأنها على صلة جوهرية بالبلدة القديمة المستطيلة الشكل التي تقع في قلب القدس.

لا شيء من هذا كله يصح على الأبنية التي أنشأتها إسرائيل منذ سنة ١٩٦٧، ولا سيما المناطق السكنية الخاصة بالإسرائيليين - المستعمرات التي يسميها الإسرائيليون أحياء سكنية - المبنية على أراض عربية في القطاع الشرقي من القدس،[١٩] وهنا يبدو التباين بأجلى صوره. فهذه المباني لا تشبه أياً من تلك التي كنا نتحدث عنها للتو، والتي يبدو أن معظمها يتصل بصلة عضوية بالبيئة المحيطة به. بدلاً من ذلك، فإن بعض هذه الأبنية يبدو كالحراس، والبعض الآخر كأبراج المراقبة، وغيرها كالقلاع، البارزة بروزاً حاداً من الأرض التي تقوم عليها. وهي تلوح في الأفق كثيفة وضخمة ومربعة، تملأ المكان وتغطي الأرض، وتترك في أكثر الأحيان انطباعاً بأنها أُسقطت في مواقعها من دون اعتبار للطوبوغرافيا، إلاّ العناية التامة بالحاجة إلى أن تكون شديدة الارتفاع، وقابلة للدفاع عنها، وفي موقع استراتيجي.

ويظهر هذا التباين أشد ما يظهر بالقياس إلى بعض الجواهر المعمارية كأسوار البلدة التي بناها السلطان سليمان، والحرم الشريف والمباني التي يحتويها (وتشتمل هذه على سلسلة من الأبنية المملوكية التي صنفها بورغوين،[٢٠] والتي لم نتطرق إليها في هذه الورقة، وإن كانت تكمل بشكل رائع مجمل الحرم). إنه، من جهة، تباين بين تزيين يقصد منه اجتذاب نظر المشاهد، سواء أكان تزييناً للمشهد عبر طوبوغرافيا معمارية أم تجميلاً لأبنية محددة، وبين صرامة عسكرية، وبساطة شديدة، ورتابة منفرة بصورة ملحوظة من جهة أُخرى. وفعلاً، فإنه في كل ما فعلته إسرائيل في القدس الشرقية منذ سنة ١٩٦٧، لا يستطيع المرء أن يشعر إلاّ في ثلاث مناطق فقط بشيء من السعي للتزيين أو محاولة إرضاء الحواس، لا مجرد الفعالية القاسية الباردة لقوة متفوقة وللضرورة الاستراتيجية. وهذه المناطق هي: الحدائق والممرات حول أسوار البلدة القديمة التي اكتُشفت مؤخراً؛[٢١] ساحة الحائط الغربي، التي بساطتها قاسية حقاً لكنها مؤثرة تحت ضخامة حجم الحائط الغربي من سور الهيكل الهيرودي (البراق)؛ أجزاء من حارة اليهود المرممة، بشوارعها المبلطة

---

(١٨) أنظر عمل ديفيد كرويانكر (David Kroyanker)، ولا سيما:
Jerusalem Architecture-Periods and Styles: Arab Buildings outside the City Walls (in Hebrew) (Jerusalem: Keter, 1985), and *Jerusalem Architecture-Periods and Styles: The British Mandate Period, 1918-1948* (in Hebrew) (Jerusalem: Keter, 1989).

(١٩) كما بينته في مقالتي "The Future of Arab Jerusalem," in Derek Hopwood, ed., *Arab Nation, Arab Nationalism* (London: MacMillans/St. Antony's College, 2000), pp. 19-40، فإن هذه المصطلحات تطمس واقع أن القدس الغربية كانت عربية، وأن ٣٠,٠٠٠ فلسطيني قد أكرهوا سنة ١٩٤٨ على الفرار من منازلهم في أحياء سكنية كالطالبية والبقعة والقطمون، وفي قرى كدير ياسين وعين كارم.

(٢٠) يحتوي كتاب بورغوين، *Mamluk Jerusalem...*, op. cit.، على تصاوير للمباني كل على حدة، وخريطة لمجمل واجهتي الحرم الغربية والشمالية، اللتين تعودان إلى أيام المماليك.

(٢١) وهذا العمل كان ابتدأ مع ستورز كما هو موصوف في:
Orientations, op. cit., pp. 310 ff.

حديثاً، والاكتشافات الأثرية والمظهر المتقن. لكن هذه المناطق الثلاث لا تزال تمثل بالنسبة إلى العين البصيرة شريحة فوق شريحة من المعاني، كما سنرى.

وفي المقابل، فنحن إذا ما قرأنا الطوبوغرافيا المعمارية لمشروع المستعمرات الإسرائيلية في المناطق التي ضمتها إسرائيل بعد سنة ١٩٦٧، والواقعة شرقي البلدة القديمة وشماليها وجنوبيها، نرى بوضوح أن هذه الأبنية الجديدة تنقل عدة رسائل بشعة شنيعة في أكثر الأحيان، من دون أية محاولة تذكر للتزيين. الأولى أنها تمثل مشروعاً لا يكن أي احترام للمكان، ولا ينطوي على أي تأثر بتقاليد العمارة المحلية، ويبدي القليل من الاهتمام حيال التأثير المتراكم لجهوده الحثيثة في الطوبوغرافيا المعمارية للمشهد المقدسي. لقد دأبت الذهنية الإسرائيلية على تمجيد أفعال الإنسان في الطبيعة، وقدرة الإنسان على التغلب على البيئة. أمّا الفلسطينيون، في هذه الذهنية، فينظر إليهم إجمالاً نظرة أقرب إلى نظرة الرواد الأميركيين إلى الأميركيين الأصليين: قوة وحشية من قوى الطبيعة يجب التغلب عليها كجزء من عملية التمدين. أمّا الآثار التي أحدثها السكان في الأعوام الألفين الأخيرة من السكنى في طوبوغرافيا الأرض، على شكل الزراعة في المصاطب، فضلاً عن القرى والبلدات والمدن، فينظر إليها في هذا المنظور إمّا باعتبارها على نحو ما غير متصلة بسكان البلد الفلسطينيين الحاليين، وإمّا باعتبارها الآثار القديمة لوجود أجداد الإسرائيليين المعاصرين.

ثمة اختلافات بارزة طبعاً في الطرق التي ينظر من خلالها الإسرائيليون إلى طوبوغرافيا البلد. وهناك، فعلاً، انقسام عميق في قلب المشروع الصهيوني في فلسطين بين أولئك الذين يجلّون بصورة شبه صوفية الأرض وصلاتها بالحوادث البارزة من تاريخ اليهود، ويريدون أن يصونوها (وإن كانوا يتعامون إجمالاً عن وجود الفلسطينيين الذين عاشوا على هذه الأرض طوال أجيال، وعما أبدعوه)، وبين أولئك الذين يريدون أن يسيطروا على الأرض كجزء من انتصارهم على الشعب الفلسطيني الذي يعيش أو كان يعيش عليها. فعلماء الآثار، وأولئك المسؤولون عما يسمى "المناطق الخضر"،[٢٢] التي يحظر البناء فيها، ينتمون إلى معسكر، والمستوطنون والبناة ومخططو التوسع الاستيطاني ينتمون إلى معسكر آخر.[٢٣] لكن حتى الأحزمة الخضر ومناطق التشجير إنما يقصد منها خدمة غايات سياسية. وقد اتضح ذلك من خلال مذكرة صادرة عن سلطة الأراضي الإسرائيلية سنة ١٩٨٥ بشأن غابة جديدة يتم زرعها على حافة قرية صور باهر العربية داخل حدود القدس البلدية، يذكرها شاؤول كوهين في كتابه: "ليس في إمكاننا اليوم أن نزرع غابة

---

(٢٢) من أجل تحليل ثاقب لسياسة استخدام الأرض في منطقة القدس، وفي جملتها "المناطق الخضر" كسلاح ضد الفلسطينيين، أنظر:
Shaul Cohen, *The Politics of Planting: Israeli-Palestinian Competition for Control of Land in the Jerusalem Periphery* (Chicago: The University of Chicago Press, 1993), University of Chicago Geography Research Paper no. 236.

(٢٣) لتكوين فكرة عن دوافع المعسكر الأول، ولا سيما واضعي الخرائط، أنظر:
Meron Benvenisti, *Sacred Landscape* (Berkeley: University of California Press, 2000).
وللاطلاع على تحليل لدوافع علماء الآثار، أنظر:
Nadia Abu El-Hajj, *Facts on the Ground* (Chicago: University of Chicago Press, 2001).

حقيقية بل مجرد غابة قليلة الكثافة غايتها الأساسية حماية المنطقة... [التشديد من الكاتب]."[٢٤] ومن نافل القول إن المطلوب إنما كان حماية المنطقة من سكانها العرب وإصرارهم العنيد على زراعة أرضهم الخاصة.

خلال إدارة الأجزاء الشرقية من القدس بعد احتلالها سنة ١٩٦٧ واصل تيدي كوليك، رئيس بلدية القدس الإسرائيلي يومها، سياسة السلطة الاستعمارية البريطانية السابقة في حظر البناء على جبل الزيتون، ذلك بأنه في حالته القائمة من انعدام البناء فيه إجمالاً كان يوفر خلفية كاملة يمكن أن تبرز البلدة القديمة في عين الناظر إليها. ومع أن سياسته كانت تمنع مُلّاك الأراضي العرب من ممارسة حقوقهم، فقد كانت تحول أيضاً دون بعض التعديات من حيث مصادرة الأملاك والشناعات المعمارية التي كانت تنجم عن إنشاء مساكن جديدة للإسرائيليين في مناطق أُخرى من القطاع الشرقي المحتل من المدينة. ولكن في نهاية المطاف، لا احترام أصول الجماليات، ولا احترام حقوق الملكية، منع بلدية كوليك من أن تستولي على قطعة أرض قريبة من قمة جبل الزيتون وتؤجرها للكنيسة المورمونية بمبالغ ضخمة بعد أن حرمت ملّاكها الفلسطينيين استعمال ملكهم الخاص.[٢٥] واليوم يقوم في الموضع مجمع أبنية عائد لمؤسسة تربوية مورمونية تنتمي إلى جامعة برغهام يونغ.

وما من سبب، كما يبين هذا المثال، للافتراض أن تيدي كوليك، المطوَّب قديساً والمحبَّب إلى قلوب الليبراليين في العالم، كان متعاطفاً بصورة خاصة مع سكان المدينة الفلسطينيين.[٢٦] فقد أشرفت إدارته، بعد احتلال المدينة في سنة ١٩٦٧، وبالتعاون مع الحكومة الإسرائيلية، على هدم حارة المغاربة وتجريد سكانها من حقوقهم فيها، من أجل فسح المجال لإقامة ساحة واسعة تمتد اليوم أمام الحائط الغربي؛ كما طردت، في الوقت نفسه، العرب الذين التجأوا إلى حارة اليهود بعدما فقدوا منازلهم في الشطر الغربي من المدينة والقرى المجاورة سنة ١٩٤٨؛ وصادرت أملاك الفلسطينيين الذين كانت لهم أعمال ومتاجر في جوار أسوار البلدة القديمة في سياق مشروع تجميلي أبرز أسوار البلدة بكامل طولها.

وبينما كان المشروع الأخير مبرراً من الناحية الجمالية وتضررت من جرّائه مواقع أعمال وتجارة، لا أماكن سكن، فإن طرد السكان العرب من حارة اليهود وحارة المغاربة، مهما تكن المنافع التي جلبها للآخرين، قد ألحق أذى بالغاً بجماعات كبيرة من الناس. في الموقع الأول، الذي نهب وأصيب بأضرار جسيمة في معارك سنة ١٩٤٨، تقوم الآن حارة اليهود المرممة، والموسعة كثيراً، والخالية من العرب (بقرار من المحكمة العليا

---

(٢٤) Cohen, op. cit., p. 133.

(٢٥) وهذه الأرض تتكون من وقف غير قابل للانتقال أوقفه عدد من العائلات المقدسية. وقد حصلت بلدية القدس، برئاسة كوليك، على مليوني دولار لقاء عقد إيجار مدته ٩٩ عاماً لا حق قانوني لها في عقده.

(٢٦) للاطلاع على بعض الأعمال التي أقدم عليها كوليك منذ سنة ١٩٦٥ حتى سنة ١٩٩٤، أنظر كتاب بنفنيستي، أحد المعجبين به ومعاونه لعدة أعوام (بصفة نائب رئيس بلدية معظم الوقت):
Meron Benvenisti, *Intimate Enemies: Jews and Arabs in a Shared Land* (Berkeley: University of California Press, 1995), pp. 35-44.

الإسرائيلية(٢٧))، وتجمّلها متاجر حصرية، ويشيفات [مدارس دينية] مرتفعة البنيان، ومساكن غالية الأثمان يعيش الكثير من أصحابها الجدد في الولايات المتحدة معظم الوقت (وهي من الأماكن القليلة في القدس التي تبدو فيها الإنكليزية لغة ثانية). أمّا حارة المغاربة، التي ترقى إلى مئات الأعوام بمساجدها ومزاراتها، فقد تعرض سكانها للتهجير بكل بساطة بعد أن وصلت الجرافات لهدمها، و"تكرّمت" الدولة الإسرائيلية عليهم بعرض "التعويض" السخيف الهزيل الذي تتكرم عادة بعرضه عندما تنخرط في عمليات الهندسة السكانية ذات الصبغة السياسية ـ الاجتماعية. وتقوم في موضع حارة المغاربة حالياً ساحة كبيرة، هي موقع للعبادات العامة على مدار الساعة أمام الحائط الغربي، وللاحتفالات الكبرى في الأعياد اليهودية، ولبعض التظاهرات السياسية أحياناً، ولحفلات تخريج وحدات النخبة في الجيش الإسرائيلي.(٢٨)

وفي معرض تقويم تأثير التغيرات التي أُجريت منذ سنة ١٩٦٧ في ساحة الحائط الغربي وحارة اليهود الملاصقة، ومحاولة "قراءة" المحصلة، يجب أن يقال إنه على الرغم من أن أحد تلك الآثار هو توكيد الحضور الإسرائيلي واليهودي في القدس، على حساب وجود الآخرين إذا اقتضى الأمر ذلك، فإنه من الناحية المعمارية تبدو المنشآت الجديدة أقل تبايناً عن نسيج البلدة القديمة التي تحيط بها مما نجده في الكثير مما فعلته دولة إسرائيل في القدس وحولها منذ سنة ١٩٦٧. صحيح أن بعض الأبنية الأحدث عهداً في حارة اليهود، بكتلتها الضخمة ومظهرها الأشبه بالقلاع، تنفر منه العين، لكن ثمة في مواضع أُخرى ترميمات حساسة لأبنية قديمة (بعضها يرقى إلى ما قبل إقامة حارة اليهود في هذه المنطقة، أي إلى زمن ما في العهد العثماني، الأرجح أن يكون القرن السادس عشر أو السابع عشر)، وبعض المباني الحديثة لا يبدو متنافراً مع الطابع المعماري للبلدة القديمة، حيث يصل عمر معظم الأبنية إلى ٤٠٠ عام أو ٥٠٠ عام أو أكثر.

وبالمثل، فإن كشف الحائط الغربي، الذي كان جزءاً من السور المحيط بهيكل هيرودس، أدى أيضاً إلى كشف جزء من سور الحرم الشريف. وكما أن المساحة التي باتت مرئية حديثاً من الحائط تعين بقوة على تذكير الناظر بذكرى أحدهما، فإنها في الوقت نفسه تساعد على تركيز الانطباع القوي الذي تتركه في نفس هذا الناظر الأبنية القائمة في الآخر. وجملة القول: إن التباين بين مظهر حارة اليهود وساحة الحائط الغربي وبين واجهة المدينة الإسلامية في معظمها، ليس كبيراً إلى حد كونه منفراً، لا بل إنهما يتكاملان في بعض الملامح. لكن لا يمكننا لسوء الحظ أن نقول الشيء نفسه عن باقي ما فعلته إسرائيل في الطوبوغرافيا المعمارية للقدس الشرقية منذ سنة ١٩٦٧.

---

(٢٧) صدر هذا الحكم في دعوى محمد سعيد برقان ضد وزارة المالية، وشركة ترميم حارة اليهود، ووزير الإسكان، في ٤ تموز/يوليو ١٩٧٨. وقد أنكرت المحكمة على برقان، وهو من أصحاب الأملاك ومن سكان حارة اليهود سابقاً، حق تأجير منزله الخاص هناك من الشركة، التي استولت عليه ورممته بعد أن صودر منه سنة ١٩٦٧، مع أن برقان دفع أعلى ثمن في المزايدة على العقار. ولقد حكمت المحكمة بأنه لا يحق إلاّ لليهود في الإقامة بحارة اليهود.

(٢٨) للاطلاع على مزيد من التفصيلات عما حدث في حارة اليهود وحارة المغاربة، أنظر مقالتي:
"The Future of Arab Jerusalem," op. cit.

رابعاً:

ما هي، إذاً، المضامين السياسية لخمسة وثلاثين عاماً من الجهود الإسرائيلية المتواصلة لتغيير الطوبوغرافيا المعمارية للقدس الشرقية؟ لقد تطرقنا إلى بعضها، لكن سواها لا يزال غامضاً. من المضامين الواضحة لهذه الجهود تعزيز اللامساواة المقننة بين اليهود والعرب في المدينة المقدسة. فالأبنية القائمة على التلال المحيطة بالقدس إلى الشمال، والشرق، والجنوب، والتي تحدثنا عنها من قبل، مخصصة كلها لاستعمال الإسرائيليين الحصري. وثمة تشكيلة من المساعدات السكنية المتاحة للإسرائيليين فقط، ومعظمها محصور باليهود وحدهم من خلال حيل كاشتراط الأهلية لهذه المساعدات بأداء الخدمة في الجيش، أو من خلال قيود صريحة يفرضها الصندوق القومي اليهودي على بيع الأملاك لغير اليهود، أو تأجيرها. وقد كان من نتيجة هذه الوسائل أن استدرج ٢٠٠,٠٠٠ إسرائيلي إلى السكن في هذه المساكن الجديدة في القدس الشرقية منذ سنة ١٩٦٧.

وفي الفترة نفسها، تزايد سكان القدس الشرقية العرب أيضاً، بحيث حافظوا على نسبتهم إلى العدد الإجمالي لسكان المدينة التي تراوحت بين ٢٨٪ و٣٠٪. لكنْ خلافاً لـ ٢٠٠,٠٠٠ يهودي إسرائيلي في القدس الشرقية، لا يتمتع الفلسطينيون بكل المعونات الحكومية، ولا يسمح لهم بأن يبنوا مساكن جديدة لمواكبة النمو السكاني. وتستخدم تشكيلة من الآليات التمييزية الظاهرة لمنع الإعمار العربي أو الحد منه، من جملة ذلك التقسيم المناطقي التقييدي التعسفي وهدم المنازل. فبين سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٨٠، وبين سنة ١٩٨٢ وسنة ١٩٨٧، هدمت السلطات الإسرائيلية ٥٤٠ منزلاً عربياً؛[(٢٩)] ومنذ توقيع اتفاقيات أوسلو في أيلول/سبتمبر ١٩٩٣، هدمت ١٠١ من المنازل.[(٣٠)] وقد هُدمت هذه في معظمها لأنها "بنيت بصورة غير شرعية" (أي بنيت من دون الحصول على رخص بناء يستحيل الحصول عليها أصلاً)، أو في حالات قليلة بسبب اعتداءات أمنية مزعومة من قبل أحد سكانها. وغني عن القول إن المنازل التي يملكها اليهود لا تخضع للهدم بهذه الطريقة، سواء أكانت مرخصة أم لا، أو لأية أسباب أُخرى.

والنتيجة النهائية لذلك كانت أن المباني التي نراها منتصبة على قمم التلال وسفوحها حول القدس مخصصة للإسرائيليين حصراً. أمّا العرب فيجدون صعوبة كبرى في بناء مساكن جديدة، كما أن الأراضي المخصصة للإعمار العربي قليلة أو معدومة، ولذلك يتحتم على العرب أن يعيشوا في منازل متداعية محصورة في جزر صغيرة داخل منطقة القدس الشرقية بمجملها. أمّا الباقي فمخصص للإسرائيليين: أكثر من ٤٠٪ من المنطقة التي ضمت إلى القدس الغربية سنة ١٩٦٧ صودر من أملاك أفراد عرب لإقامة هذه المستعمرات الإسرائيلية وسواها من المنشآت التي لا يستفيد منها إلاّ الإسرائيليون وحدهم، بينما تظل

(٢٩) هذه الإحصاءات الجزئية مستمدة من أرقام جمعتها جمعية الدراسات العربية في القدس ومنظمة العفو الدولية، وهي مذكورة في:

Issa Nakhleh, ed., *The Encyclopedia of the Palestine Problem* (New York: Intercontinental Books, 1991), pp. 576-583.

(٣٠) استناداً إلى الأرقام التي جمعتها اللجنة الأميركية الخاصة بالقدس في واشنطن العاصمة:

The Jerusalem Monitor, 2, 7, July 1998, pp. 1, 6.

مساحات إضافية واسعة مناطق خضراً غير مخصصة للبناء.[٣١] وما هذا إلاّ شكل واحد من أشكال كثيرة للتمييز الفظ ضد العرب في القدس منذ سنة ١٩٦٧. ويلاحظ ميرون بنفنيستي أنه في سنة ١٩٨٦ لم ينفق من ميزانية تطوير المدينة إلاّ ما نسبته ٣٪ على القطاع العربي، وفي سنة ١٩٩٠ لم ينفق إلاّ ما نسبته ٢,٦٪.[٣٢] ومع هذا، فإن هذا الشكل من أشكال التمييز يستجر أكثر المضامين السياسية مباشرة لأكثر المظاهر الصارخة من الطوبوغرافيا المعمارية للقدس: المستعمرات الإسرائيلية التي تلوح على التلال المحيطة بها.

ومن المضامين الأُخرى للتغيرات في المشهد المديني التي أنزلها الاحتلال الإسرائيلي بالشطر الشرقي من المدينة في سنة ١٩٦٧، أن القدس أصبحت التخوم الأكثر أهمية للمشروع الصهيوني عند نهاية القرن. فبينما كانت الأراضي المستوطنة وفقاً لمخطط استراتيجي محدد (على امتداد الساحل من يافا إلى حيفا، وجنوباً من حيفا إلى بيسان، ومن ثم صعوداً في إصبع الجليل الشرقي على شكل حرف N) هي التي شكلت التخوم في الحقب الأولى من الصهيونية قبل سنة ١٩٤٨، وبينما كانت السيطرة التامة على مناطق واسعة غنمت من الفلسطينيين والجيوش العربية خلال حرب ١٩٤٨ هي التي عينت التخوم الأساسية في فترة ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧، نجد أن هناك منذ سنة ١٩٦٧ ميولاً متناقضة فيما يتعلق باستعمار ما تبقى من فلسطين. فمن جهة، كان هناك أولئك الذين دعوا إلى استيعاب مجمل الضفة الغربية (اليهودية والسامرة في تعبيرهم) إضافة إلى قطاع غزة ومرتفعات الجولان. ومن جهة أُخرى، كان هناك أولئك الذين يدعون إلى "صهيونية نوعية" من شأنها أن تدفع إسرائيل إلى التخلي عن معظم الأراضي المحتلة وما تحتويه من ملايين العرب من أجل إبقاء الدولة اليهودية يهودية. ومن غير الواضح أي من هذين التوجهين سينتصر في النهاية، لكن الظاهر أنه بينما يوجد انقسام بين الإسرائيليين في شأن استيطان أماكن أُخرى، فإن ثمة درجة عالية من الإجماع على الحاجة إلى استيطان القدس الشرقية العربية، وتالياً السيطرة عليها.[٣٣]

معنى هذا، وبصرف النظر عن كل شيء آخر، سواء الانقسامات السياسية الإسرائيلية، أو الجهود الفلسطينية، أو نتيجة ما تساء تسميته بـ"عملية السلام"، أنه من المرجح جداً أن تستمر الدينامية التي أوجدت المستعمرات الإسرائيلية التي تطوق أفق القدس في اندفاعها. لكن من الممكن جداً أن تؤدي الجهود الفلسطينية لمقاومة هذه العملية، أو أداء دور فعال في تشكيل الطوبوغرافيا المعمارية للمدينة ـ وهما أمران لم يتصفا بالقوة والبروز على مدى الأعوام الخمسة والثلاثين الماضية ـ إلى إعاقة هذه العملية، فضلاً عن فضحها أمام الرأي العام العالمي وإظهارها على حقيقتها. وفي الوقت نفسه، وبمعزل عن أي مجهود سياسي من قبل الفلسطينيين، فقد أفلح هؤلاء نسبياً على الصعيد الديموغرافي، على الرغم من السياسات الإسرائيلية الهادفة إلى تقليص عدد العرب من سكان المدينة. وهذا يعني أنه

---

(٣١) Benvenisti, *Intimate Enemies...*, op. cit., p. 36.

(٣٢) Ibid., p. 35.

(٣٣) ومع ذلك، أنظر فيما يتعلق بهذه المسألة:
Jerome Segal, *Negotiating Jerusalem* (New York: State University of New York Press, 1999),
الذي يبين استناداً إلى استفتاءات للرأي العام مستفيضة أن الإسرائيليين يكنون تعلقاً متفاوتاً بمناطق متعددة من القدس.

على الرغم من كل التغيرات التي أجرتها إسرائيل في مظهر المدينة خلال العقود الثلاثة والنصف المنصرمة، فهي لم تفلح في تغيير المعادلة الأساسية التي ورثتها سنة ١٩٦٧ بالنسبة إلى عدد سكان المدينة: فالعرب ما زالوا يشكلون نسبة أقل قليلاً من ٣٠٪.

غير أن ما نجحت إسرائيل في عمله، من خلال احتلالها القدس الشرقية وضمها، ثم ما كان لاحقاً من تشييدها طوقاً من الحجر حول المدينة، إنما يكمن في اتباع السابقة التي وضعها الخليفة معاوية للمسلمين أولاً، ووضعها الأباطرة الرومان والبيزنطيون في عصور أقدم، ومن قبلهم هيرودس، وربما الملك سليمان من قبلهم: "مماهاة القدس مع شرعية السلطة، بما يتجاوز ويخرج عن نطاق معاني التقوى التي كانت تنطوي عليها المدينة."(٣٤) وقد أفلحت إسرائيل في القيام بذلك مستعملة قدرتها لا فقط في مجال الدعاية، أو في ترقية السياحة، أو من خلال عدد لا يحصى من الوسائل التي تشدد على سلطتها في البلاد عبر السيطرة على القدس، بل أيضاً في تشكيل الطوبوغرافيا المعمارية للمدينة كرمز قوي ودائم لسلطتها السياسية الحصرية في القدس.

ولئن أراد الفلسطينيون أن ينازعوها هذه الحصرية، وأن يكون لهم حظ في المطالبة بحصتهم المشروعة في القدس، فهم يحتاجون طبعاً إلى قوة أكبر من تلك التي لهم اليوم. لكن إذا قيض لهم أن يفلحوا فعليهم أن يستعملوا هذه السلطة - وهم يستطيعون حتى في هذه اللحظة أن يستعملوا المقومات الكثيرة التي يتحكمون فيها حالياً، من ذلك التجديد والترميم الشامل لعدة مئات من المباني التي يملكها العرب داخل المدينة القديمة - كي يشرعوا سلطتهم ومكانتهم بالطريقة نفسها التي اتبعتها كل الأنظمة السابقة التي خلفت أثراً باقياً في القدس، وسيكون عليهم أن يفعلوا ذلك من خلال الكتابة على الطبيعة بالحجر وبالمباني، فيؤثروا بذلك في الطوبوغرافيا المعمارية لهذه المدينة العريقة. ■

(٣٤) Grabar, *The Shape of the Holy...*, op. cit., p. 50.